النقد الجائر

بقلم رضوان ابراهيم

يحلو لبعض الأدباء احياناً ان يتهجموا بالباطل على تراثنا الادبي ، ويحاولون ان يتنقصوه ، وان يحطوا من شأنه بغير الحق .

وتلك فرية لو تسمّحنا فيها لصغار الادباء الذين يحاولون ان يبرزوا ويتطاولوا ، وان يبنوا صروحهم بانقاض هذا التراث — فلن نغتفرها لأولئك الشيوخ الذين يزعمون لأنفسهم الصدارة في دنيا الادب والنقد ، أو تواتيهم الفرص ان يمثلوا دور العرجى في حي المقعدين .

ويبقى بعد ذلك تساؤلنا حائراً عن الدوافع الخبيثة الهدامة التي يستهدفونها في هذه الهجمات المغرضة التي تخرج ماضينا الادبي في صورة باهتة مهزولة ، وتظهر ادباءنا في مباذل الافاقين والمشعوذين ، وتجرح هذا التراث كله ، فتشيع في الناس انه حثالة لا يصلح لشيء ، ولا يبقى منه شيء جدير بالاعزاز أو الفخار ، ويبقى شباب الادباء ، وناشئة المتأدبين في العالم العربي بلا مثل ولا قدوة ، وما اوقحها جناية على الماضي والحاضر والمستقبل !

فماذا يبقى لنا — إذن — من مجد فكري نبقي عليه ونتأثره ، ونحن نراه — كما يزعمون — إفكاً وبهتاناً !؟

وبماذا نعتز ، وقد اوهمونا ان مابين ايدينا منه هباء وبهرج زائف لا يثبت على النقد ؟

ومن اسف ان اكثر من يستهدفون لهذا الهجوم ممن استأثرت بهم الحياة الباقية ، واحتضنتهم الدار الآخرة ، وصاروا في مواكب التاريخ ، فأفسح لهم من صدره ، وأنزلهم في رحابه ... ترى ، هل كان يحيق بهم ظلم الظالمين لو كانوا احياء !

* * *

من الناس من لا يعجبهم إلا ان ينبشوا القبور ، ليبحثوا بين امواج رمالها البيضاء عن حمأة يشهرون بها ، وإلا ان يطمسوا معالم الطريق بين يدي الأجيال المنطلقة ، ويشككوهم في القيم الأدبية وفي الروائع التي صارعت عدوان الزمن .. وإلا ان يثيروا الغبار في وجه الموكب ، وهم يحسبون انهم يردونه عن الغاية ، ويظنون انهم بضجيجهم الصاخب هذا يحولون مجرى العدالة .. عدالة التاريخ قاضي الأجيال ..

فالمتنبي عندهم ليس بشاعر ؛ لانه طامع يتخذ الشعر وسيلة لأطماعه ..

وأبو تمام ليس بشاعر ؛ لانه اتخذ من شعره معرضاً لدخيل العلوم وصناعة البديع ..

والبحتري ليس بشاعر ؛ لانه لم يتأثر بالبيئة الثقافية المحيطة به .

وأبو العلاء ليس بشاعر ؛ لانه فيلسوف حمل الشعر مالا يحتمل وألزمه ما لا يلزم !.

وشوقي ليس بشاعر ؛ لانه مدح الاقطاعيين وحطب في حبالهم !

والبارودي مقلد .. وحافظ خطيب ..

.. هكذا يخلطون ، وهكذا يسفسطون ، حتى لا يبقى في العرب أقدمون ولا محدثون !

ومثل ذلك يندد ون بالكتاب ..

.. فابن المقفع مترجم ينقل افكار الفرس وغيرهم .

والجاحظ معرض مشوش من الافكار والآراء والمعارف لم تتميز فيه موهبة اصيلة ، ولم تنضج فيه ملكة ممتازة ..

والمنفلوطي منشيء يرص الكلام بعضه الى بعض ، وليس بكاتب ذي فكرة ..

والرافعي سطحي النظرة ، يعاظل الفاظ اللغة ، ويوصي بالفقر ، ويعلم الناس الخنوع ..

بمثل هذا تتردد ألسنة فئة هدامة من نقاد اليوم ، وبمثل هذا يرون انهم امسكوا المعاول ، وهدموا هذه الصروح ، ثم وقفوا على انقاضها يتنفسون الصعداء .

لا ندري لماذا ، لاننا لا نعرف لهم هدفاً من وراء تحطيم هؤلاء الأعلام ، وربما كانوا هم ايضاً لا يعرفون .

ولكن التاريخ يقف من ورائهم مقهقهاً ساخراً ، مشفقاً من الجهود التي ينفقونها على غير طائل .

* * *

لا .. لا .. رويدكم ايها السادة !!

فنحن نظلم الواقع ، ونظلم الزمن إذا طبقنا على أسلافنا القريبين او البعيدين مقاييس النقد الحديث ، او اقمنا لهم من مزاجنا موازين جائرة مختلفة . فما على الامزجة الفردية ، او الاحداث الطارئة او الاهواء المتقلبة تستوى مبادىء النقد الاصيل.

ونحن اذا تناسينا البيئة الادبية او السياسية او الاجتماعية التي يندمج فيها الاديب ، أو الحياة التي يحياها الشاعر ، او اغفلنا حساب الزمن ومبدأ التطور — فما أنصفنا الأدب ولا النقد ولا طبائع الأشياء .

* * *

من ابرز سمات النقد الجائر الذي يتردد على ألسنة هؤلاء المهاجمين اليوم اتهام ادبائنا الموتى بالأقطاعية والرجعية والنفاق، وإهدار مزاياهم جميعاً لهذه النظرة الخاطئة التي يرمون بحاصبها زوراً وبهتاناً من هؤلاء الذين نصبوا انفسهم حكاما او متحكمين في مصائر الأدب .

وأخص هؤلاء المفترى عليهم اليوم شوقي والرافعي .

فمن الظلم ان يرمى شاعر مثل أحمد شوقي او كاتب مثل مصطفى صادق الرافعي بالاقطاعية أو النفعية أو النفاق جزافاً .

فاذا مجد شوقي إسماعيل ، أو أشاد بتوفيق وأضفى على فؤاد ، فلماذا نسمي ذلك نفاقاً ولا نسميه وفاء لمن أسبغوا عليه الرغد والرفاهية ، ما دام منبعثاً عن عاطفة صادقة ؟؟

ومنذ متى كان الوفاء نفاقاً ، وما من هؤلاء المتطاولين على شوقي إلا تمنى بجدع الأنف ان يلج هذه الأبواب ، لولا انها امتنعت عليه ، وأمعنت في صدودها ، فارتد عنها وهو يقول : ان عنبها حصرم ؟!!

على ان شوقي كان صورة حية للفن في تطوره ، فاذا كان التطور في طبيعة الاحياء، واذا كان التطور السريع من سمات الفن ، فقد كان شوقي مثلاً بارعاً لهذا المبدأ ، فشعره مرآة صافية انعكست عليها احداث هذه الفترة المتقلبة التي عاشها بما فيها من حلو ومر .

نشأ في القصر، فكان شعره المبكر تعبيراً صادقاً عن الوفاء للقصر ، ثم اتصل بالوسط الأرستقراطي خارج القصر ، فمدح ، ورثى، ووصف ما التمع في مرآة حياته بطريقة فيها الكثير من الصدق والكثير من الأصالة .

ثم كانت سلسلة متلاحقة من الزلازل التي كان أولها الحرب، وليس آخرها النفي ولا الثورة المصرية التي اعقبت الحرب ، فكان شوقي لحن الوطنية المدوي ، وأغنيتها العذبة ، وسجل احداثها المتتابعة .

وبينما كان يمزج في شعره بين الوطنية وبين اولياء نعمته الذين خدع في ولائهم للوطن ، كان هناك شاعر او كاتب من ثوار تلك الفترة الذين لا نجحد فضلهم ، والذين اجترأوا على هذه المقامات التي كانت سامية يومذاك ، فهاجموها ، ولكن هذه الجرأة وتلك الهجمات لم تنتج أثرها المرجو ، ولم تمهد للثورة بقدر ما مهد لها شعر شوقي الذي كان خميرة للثورة يشيعها في روح الشعب ، وبقدر ما كانت ألحانه باعثة لتلك الرجفة في اعصاب الشعب الذي استجمع طويلاً ، والذي استجمعت معه الاجيال التالية متربصة لهذه الوثبة المباركة .

واشعار شوقي التي يتغنى بها الشعب ، والتي ألهبت حماسته اكثر من ان نستشهد لها ، واثرها في ثوراتنا الموفقة اوضح من أن توضح .

فلم إذن ننظر الى شوقي وامثاله من الزوايا المظلمة ، لنتهمه بالترويج للرجعية والاقطاعية ؟ ولماذا لا نقدر فيه هذا التطور المساير لروح النهضة ؟

ولماذا ننكر عليه انه مدح يوماً من لا يستأهل في نظرنا هذا المدح ، ثم عاد الى حظيرة الشعب ، وساير نهضته ، ووقف عليها شعره ؟

هل من المفروض ان يتخلى الأديب عن جزء من حياته ليعد في التقدميين ؟ هل في الممكن ان يتخلى الانسان عن عضو من جسمه: يده أو رجله مثلاً لأنها عاشت معه حياة الطفولة الضعيفة أو الصبا الغض ؟

* * *

ليس معنى النهضة ان نقتطع جزءاً من تاريخنا ، او ننسى ماضينا مهما كان اسود، وإلا فما يدري الاجيال المقبلة اننا تطورنا؟

ما بال روما لم تنسَ نيرون وقد تلظت في ناره ؟ وما بال الانسانية لم تنسَ الطوفان وقد كاد يأتي عليها ؟!!

* * *

ليس ذلك دفاعاً عن شوقي ، فأنا ممن ينكرون عليه مدائحه التقليدية الباردة التي استهل بها حياته الادبية، وذلك من ابرز عيوبه.

ولكننا اذا نظرنا الى مدائحه بعد تلك الفترة رأيناها تتحول

— البقية على الصفحة ٤٧ —

النقد الجـــائر

— بقية المنشور على الصفحة ٣٢ —

رويداً رويداً الى شيء آخر غير الملق والزلفى التقليديين ، وتصبح توجيهاً وحثاً على الاعمال الصالحة ، ووضع مثل وطنية واصلاحية عليا يتجه اليها اولئك الممدوحون ، وقد ذهبت عنها الصور التقليدية السمجة من جمال البدر ، وشموخ الجبل ، وكرم البحر ، ورقة النسيم ، وشجاعة الأسد ...

وشوقي نفسه يشاركنا هذا الأنكار ، ويعفينا من هـــذا الدفاع حينما يعترف بهذا العيب ، فيقول وكأنه يستغفر من هذه السقطة :

« إنني قرعت ابواب الشعر وانا لا اعلم من حقيقتـه ما اعلم اليوم ، ولا اجد امامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوي ، فما زلت اتمنى هذه المنزلة حتى وفقت اليها ، ثم طلبت العلم في اوربا فوجدت فيها نور السبيل ، وعلمت انني مسؤول عن تلك الهبة . »

واذا طالبنا شوقي الذي عاش في اوائل هذا القرن ، وسط دياجير الاستعمار المدلهمة ، وفي احضان الأقطاع المستحكم ، وفي رعاية هؤلاء السادة الأتراك الذين يسندهم الاستعمار المسلح ..

اذا طالبنا شوقي وسط هذه العوامـــل ان يكون ثائراً مندفعاً ، يهتف وحده للثورة ، وينتفض وحده على اولياء نعمته وينقض وحده على نار الانكليز وحديدهم .. فما اذاً نطالب أدباءنا وشعراءنا اليوم ؟ .. أولئك الذين يضطربون في حياتنا بعد ثورة ٢٣ يوليه وما تلاها من احداث ، وكثير منهم صموا فلم يسمعوا الصيحة ، وبكموا فلم تتردد للثورة النائمة أصداء على السنتهم التي طالما سالت بالملق الفاضح والرياء البغيض بالامس القريب .

وقليـل منهم انطلقوا يبرجمون ويفأفئون ، فجاءوا بالغث البارد والخيال المسف ، والمعاني الميتة ، ولم يزيدوا عـلى ان غيروا العنـــوان ورصوا كلمات القاموس ، وكأنما يؤدون واجباً ثقيلاً ، وضريبة فادحة .

واقل القليـــل من استطاع ان يحلق ، وينبعث في حلبة الثورة ، لأنها كانت كامنـة في روحه قبل أن تستعلن وتصبح حقيقة تجلجل اصداؤها في أنحاء العالم .

فما رأى نقادنا الاكرمين في هذا ؟

اما زالو حانقين على شوقي .. وعلى صوته يستيقظ الغفاة ، ويوحي شعره العذب ينبعث العاملون ؟

اما زالوا يجرحونه ، وهم لو نظروا حتى الى مدائحه البغيضة لوجدوها توريطاً لحكام ذلك الزمن ، وحثـــاً لهم على العمل للاتحاد والاستقلال والاصلاح والدستور والتعليم والجيش ؟

★ ★ ★

والرافعي ..

الرافعي الذي يرمى اليوم بالاقطاعية والرجعية والنفاق ، لأنه دعا فيما دعـــا الى الروحية واعلى من شأنها — بريء كل البراءة ، وضحية لسوء فهم او سوء تقدير لأدبه الرفيع .

وكتابه « المساكين » الذي يتهم من اجله دليل ناصع لا على أنه كاتب فحسب ، ولكن على أنه إنسان متسامي الأنسانية .

ذلك الرجـــل الأديب الذي كانت ثورته على الرجعية والاقطاعية والعبودية مضرب المثل ، حينما ثار على القصر ورمى في وجهه بكلمة الكبرياء المتغطرسة .. يوم كان طغيان القصر ورجاله هو الطوفان الذي لم يعتصم منه معتصم .

والرافعي هو الاديب الذي يمثل الثورة العنيفة الجارفة في كل ما كتب ..

دعا الى المحبة في شبابه فأنشأ أدب الحب ، ودعا الى القوة في كهولته ، فأشاع أدب العنف ، وكافح في سبيـــل الدين والأخلاص بأسلحة أيسرها شواظ النـــار ورجوم الشياطين تتساقط على رؤوس المرجفين او المتشككين أو الاباحيين .

لقد هاجم الأقطاع في قصصه الرمزية التي انتزعها من زوايا التاريخ وفي احاديثه الصريحة التي حثا بهـــا التراب في وجه المترفين .

ولا أدري ماذا أختار مثلاً وشواهد من أحاديثه وقصصه التي تتتابع في آخر وأنضج ما كتب وهو كتابه « وحي القلم » فان شئت فاقرأه جميعه فهو أبرع ما خطه قلمه في ذروة نضجه الفني ، وان شئت فاقرأ ما كتبه عنـه حواريه وتلميذه سعيد العريان في كتابه « حيـــاة الرافعي » وان شئت فاقرأ له « حديث قطين — الطفولتـان — أحلام في الشارع — أحلام في قصر — بنت الباشا — قصة زواج — عربة اللقطاء .. » في الجزء الأول من كتابه هذا .

من جمال الحياة

يا جمال الحياة ، ما زلتَ دفاقاً ، جديد العَطاء ، كالينبوعِ
تعشق النفسُ ان تَرُودَكَ ، نشوى ، بين سيل الجراح ، بين الدموع

دهمَ الليلُ عصرنا ، وهوَ يجري ، وهو يجري ، كالجدول الرّقراق
من وراء الظلام ، تنبثق الاضواء ، حرّى ، من وثبةٍ وانطلاق .

اننا — يا حياة — ننسج منك الشعر ، بكراً ، من نبضك المستمر ،
من لهاث المسلول ، من سكتة الميت ومن جمجة الخطى وهي تسري

قيل : «دبّ الصقيع ، في كل عرق ، بعدان كان ، كالشّواظ ، يُجَنّ»
من تبعثر اشلاءه ، ظُفُر الموت ، ويشتد بالرّدى ، فهو نحنُ .

خلف هذي القضبان ، تشتد أرواحٌ ، وتحت السياط ، دنيا تثور
كل زنزانةٍ ، تضمُّ جريحاً ، هي نارٌ ، للمؤمنين ، ونور .

يدُنا — ياحياة — شُدّت الى الأعصُر ، نمضي بجرحها ، ونغنّي ،
ونغنّي ، خلف الجبال من الأحزان ، شمساً وضيئة ، كالتمني

ظلّنا ، لم يزل يسيرُ ، ويمتـدُّ ، فراشاً لليائسين ، طريّا
فرحٌ ، في قلوبنا ، مُستجدٌ ، كان حياًّ ، ولم يزلْ بعدُ حيّا

حمص — **نصوح فاخوري**

كما هاجم الطغيان في كل خطرة من خطرات قلمه .. طغيان الأفراد وطغيان الحكومات ، ودعا الى القوة ومكافحة الاستعمار في كثير من مقالاته ، أذكر منها على سبيل المثال « لو — يا شباب العرب — في محنة فلسطين — وفي كثير من احاديث الباشا .. » في الجزء الثاني . ودعوته الى الثورة كانت دعوة مستجابة ، ولا اختار لها إلا مقالة واحدة كان يستمليهـا من عالم الغيب ، هي مقالة « الرجل الالهي » . تلك المقالة التي اختارتهـا وزارة المعارف المصرية لتكون أنموذجاً لادب الرافعي او لادب القوة فيما قررته للسنة التوجيهية بمدارسها في عام الثورة الميمون ، فيهـا تصوير للاستبداد كيف يقتل الشعب ، وفيهـا منهج للتحرر كيف يكون ، وفيهـا وصف مستوعب لبطل الثورة المنقذ ، حتى أشكل على الطلبة فحسبوها كتبت بعد الثورة بقلم من اقلام ابطالها .

انا أوصي ناقد الرافعي — كما انصح لكل ناقد — ان يتروى ويتمعن قراءة ادبه قبل ان يهاجمه ، فانه لن يرضى عنه فحسب ، بل سيخرج من قراءته صديقاً ينتصف له ، ومهما كان الناقد ثائراً فسوف يجد الرافعي قد سبقه أشواطاً وأشواطاً .

فليس أخطر على الأثر الادبي من القراءة السريعة ، وليس أضر بسمعة النقد الأدبي من النظرة السطحية .

أقول هذا وانا ما زلت اذكر شيئاً يثير الضحك والاشفاق معاً .. اذكر اني قرأت نقداً لأغنية الاستاذ محمد عبدالوهاب التي مطلعها : احب عيشة الحرية * زي الطيور بـين الاغصان وقد تحامل الناقد وشهر ، وانصب نقده وتشهيره على قوله :—

مطرح ما يبجي في عيني النوم   انام وانا مـرتاح البـال

وقال حضرة الناقد ما معناه : كيف يقال هـذا في نشيد عسكري يردده الجنود في ميدان القتال ؟ كيف ينام الجندي في اي مكان يأتيه النوم ؟ كيف تسمحون يا رجال الجيش ان يُقرر هذا النشيد العسكري وفيه هذا البيت ..

وانبعث في ثورته علـى النشيد ومؤلفه ومنشده ، والجيش وقواده ، وأقام الدنيا وأقعدها على هذا الاساس .

وتساءلت بين الحيرة والاشفاق : متى كان هـذا النشيد عسكرياً ؟ وفي اي جيش من جيوش (التنابلة) قرر هـذا نشيداً ؟ .. تساءلت فلم أزد على ما أعلم من انها اغنية تعبيرية استدعاها مشهد من مشاهد احـدى روايات عبدالوهاب ، ورثيت لحضرة الناقد النزيه الذي راح ضحيـة الوهم الخاطىء ، وان كان أمثاله من الناقدين كثيرين ينقدون على طريقة « لا تقربوا الصلاة ... فويل للمصلين .. »

★

وبعد .. فهل أراني مكتفياً بهذا الحديث عن هـذين الاديبين دليلاً على تجني المتجنين ، والانتصاف لبراءة الابرياء ؟

لسنا معصومين ، ولكننا نرجو — أبـداً — ان نكون منصفين . فأنصفوا التاريخ من انفسكم ايها النقـاد ، وحرروا موازينـكم من الزيغ والخلل اذا فرضتم انفسكم قادة وموجهين .

ولا تثـيروا تراب القبور ، ولا تؤرقوا عظام الآباء في مراقدهم ، فما في مثل هذا كبير فخار ، ولا عظيم ثناء .

القاهرة : **رضوان ابراهيم**